الزوايا في الجزائر...وفريضة التعليم الغائبة

أ. نجيب بن خيرة

جامعة الأمير عبد القادر

ملخص

لعبت الزوايا دورا هاما في نشر الإسلام وحفظ لغة القرآن في مختلف بقاع العالم الإسلامي. وهي امتداد للمدارس و الكتاتيب التي زخرت بها حضارتنا إسلامية على مر العصور .

ومع قهر الاستعمار فقدت الزوايا مكانتها ودورها الريادي في حياة المسلمين . واخترقتها الشعوذة و الدروشة فتخلت عن وظيفتها الأساسية وهي تعليم القرآن. وتدريس علوم الدين .

هذا البحث يقدم برنامجا دراسيا كفيلا بالنهوض بهذه المؤسسات وتحويلها إلى مراكز إشعاع حضاري شامل .كما يركز البحث على العوامل التي تساعد على إنجاح سير العملية التدريس .

The zaouias in Algeria and the Absence of their Educational duty

The zaouia have played a significant role in the spread of Islam. And the preservation of the language coran. (Arabic) throughout the Islamic world.

The Zaouias are an extention. Or branch of the Traditional coranic schools that have been developed during our Islam civilisation, but due to the europeans occupation. The zaouias has been retragrading their role in teatching coran and Islamic science.

In this Reaserch project I want to produce an educational programme.

This project will also attempt to identify those factors that will contribute to the success of this educational programme.

مدارس التعليم والقرآن. .عطاء الحضارة الإسلامية

إذا كان انتشار بعض الأديان السماوية السابقة زمنيا على الإسلام قد جاء مصحوبا بموجة من الجهل و الظلام عمت المجتمع نتيجة لتعصب رجال الدين ضد كل ما يمت بصلة لتراث السابقين. فإن الوضع اختلف اختلافا بيّنا بالنسبة للإسلام.

فإنه ما أن استقر الإسلام في البلدان التي دخلها. وفُتحت قلوب الناس له. وأمدّته بالنصر. وجمعت الأمم تحت لوائه حتى أعطى الإسلام عطاءً باذخا أسعد القلوب. وأيقظ العقول. وكانت آيته الكبرى ما ظهر في تلك البلاد من إقبال الناس على العلم. لأن الإسلام يؤكد على أهمية العلم منذ أن

نزلت أول كلمة على قلب رسول الله ﷺ في غار حراء }إقرأ{. ورفع جلّ شأنه من مكانة العلم عندما أقسم بالقلم: } ن والقلم وما يسطرون{. وجعل النبي ﷺ مداد العلماء أثقل في الميزان من دم الشهداء.

إن نهر المعرفة الإسلامية شقّ مجراه في أنحاء الدولة فروى جدبها، وأحيا مواتها. وجعل المسلمين أرجح كفّة في الإلهيات والإنسانيات. وميزهم بفقه لا نظير له في الدقة و الصدق والاستيعاب و الشمول.

وأصبح التعليم، وطلب العلم عبادة وفريضة اصطبغت بها حضارة العرب و المسلمين على مر العصور، وكلما مرّت السنون ازداد الناس إقبالا على حلقات العلم، والاختلاف إلى المدارس. حتى حفلت كثير من المساجد في البلاد الإسلامية بعدّة حلقات دراسية لا بحلقة واحدة، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقي الدرس في علم من العلوم يحذقه ويلقنه لطلابه.

ورغم أن سلطان الخلافة وهى وذهبت مهابته، وقامت دويلات إسلامية كثيرة في الشرق و الغرب تحكم تارة باسمه، وتارة تتجاهله أو تعاديه. فإن نهر الحياة الفكرية ظلّ نهرا هادرا بالعلوم والمعارف يُنظِّر لها، ويقعّد لها القواعد بعقل ذكي، ونظر ثاقب ،وإحاطة شاملة.

وعلى الباحث المنصف أن يفرق بين أجهزة الحكم وأحوال الأمة نفسها.. فإن العفن الذي ضرب في القشرة لم يصل إلى اللباب...

"ففي بلاد المغرب مثلا ظلت الثقافة الإسلامية تأخذ طريقا في دولة الأغالبة، ودولة الأدارسة. فانتعشت الثقافة في عصريهما. وكان القرآن الكريم هو محور كل حركة فكرية. .فهو قوام دين ودستور سياسة.وبحر أخلاق، وقاموس لغة، وديوان ثقافة.."[1]

كما امتد رواق الحياة الإسلامية وبسط سُرادقه على حياة الأمة في بلاد المغرب في عصر الدولة الرستمية، وذلك نتيجة لتشجيع أئمة تيهرت وتلمسان للثقافة واعتنائهم بها، كما لا ننسى جمهرة

العلماء الذين ظهروا في العهد الفاطمي و الصنهاجي بإفريقية. .إلى العصر الحمادي ببجاية وبروز علماء أكفاء في شتى المعارف اللغوية والعلمية. .كل هذا نشأ وترعرع في أحضان زوايا العلم والقرآن.

وإذا كانت النكسة التي أصابت العالم الإسلامي وضربت حضارته العلمية في الصميم، وغدا مرهقا بالأعباء، مجزأ بالتفرقة، من جراء التنازع على الملك، والتخاذل أمام الشهوات، والانغماس في الترف، والإسراف في البذخ. .مما أدى إلى الانحدار والانهزام أمام غزوات التتار، فإنه سرعان ما قيظ الله لأمة الإسلام العثمانيين الذين أصبحوا فيما بعد الدولة الأولى في العالم، ولم يشعر العرب بضيق من قيادتها رغم أنهم بعيدين عن جنسها، بل عاونوها وقاسموها المغارم والمغانم.

وبالرغم من أن الأتراك كانت متابعتهم العلمية تنقص تفوقهم العسكري فإن المسلمين بقي ارتباطهم بالدين الإسلامي. وبالثقافة الدينية وثيقا ظلوا على مرّ العصور يبنون المساجد. ويتنافسون في إلحاق المدارس القرآنية بها..ويتفاخرون في ترسيم العلماء الأفذاذ فيها.

وعندما غربت شمس الخلافة وسقطت بلاد المسلمين في أيدي المستعمر الغاشم. وتهاوت الدولة التركية العجوز تحت مطارق الاستعمار الغربي الذي نزل ديارها ونكّس ألويتها استيقظت أسباب المناعة في الأمة الجريحة، وتحركت طوائف المصلحين و العلماء ليرأبوا الصدع ويجمعوا الكلمة. ويستأنفوا النشاط العلمي من جديد، مع حسن فقه، وصدق بصيرة، وخلوص غاية.

ولم يقف المد الإسلامي يوما إلا ليبدأ رحلة جديدة، أو ليستأنف معارك جديدة. ..قد يصيبه العثار، ولكنه لا يسقط، قد يذوى ويذبل ولكنه لا يموت. .بل إننا علمنا من تجارب التاريخ أن المحن و الرزايا لا تزيد هذه الأمة إلا مضاء وتصميما وقوة. .تستطيع هذه الأمة أن تصنع من الضعف قوة، ومن الهزيمة نصرا، ومن التخلف الفكري ملامح ذكاء وعبقرية. وتلك عظمة هذا الدين الذي حمل لواءه الصفوة المختارة ن هذه الأمة، واستطاعوا أن يسطروا ء فحات مشرقة من حضارة الإسلام كان مدادها ونورها من زوايا العلم والقرآن..

الزوايا على خط المواجهة

لقد نشأت الزاوية في الرباطات الجهادية التي أقامها العلماء والقادة لحماية الثغور والممرات الاستراتيجية المؤدية إلى أرض الإسلام. وعرفت هذه الرباطات فيما بعد الزوايا. وسميت الزاوية باسم مؤسسها الأول أو باسم المنطقة المتواجدة فيها.

لقد لعبت الزوايا دورا مهما في نشر الإسلام في مختلف بقاع العالم الإسلامي الذي لم يصله المسلمون فاتحين.

فبلاد الشيشان مثلا بقيت إلى غاية القرن السابع عشر الميلادي من دون ديانة. ولكن أهلها اعتنقوا الإسلام بعد ذلك على يد مشايخ الطرق من بخارى وداغستان وشيرفان. وكان لكل من الطرق الصوفية: النقشبندية و القادرية دور كبير في ذلك.

ومنذ اعتناق أهل الشيشان للإسلام أصبحوا من أكثر الشعوب في شمال القوقاز تمسكا بدينهم. وتاريخ صراعهم مع القيصارة. وصراعهم الحالي مع الروس يؤكد تمسكهم بالدين الإسلامي. فلا القياصرة النصارى، استطاعوا تنصيرهم. ولا الشيوعيون نجحوا في إبعادهم عن دينهم. [2]

وفي بلاد المغرب حاربت الزاوية الغزاة البرتغاليين والأسبان الذين كانوا يهاجمون ثغور المغرب العربي، كما قامت بنشاط كبير في نشر الإسلام في أواسط إفريقيا، منطلقة من الزوايا المقامة على تخوم الصحراء الكبرى. [3]

ويصف شكيب أرسلان تكوين الزاوية السنوسية مثلا، وهو وصف ينطبق على زوايا المغرب العربي عامة فيقول :" الزاوية فيها مقدم وهو القيم عليها وهو الذي يتولى أمور القبيلة، ويفصل الخصومات بينها، ويبلغ الأوامر الصادرة من السيد السنوسي، ويليه وكيل الدخل و الخرج، وإليه النظر في زراعة الأراضي وجميع الأمور الاقتصادية، ومن عاداتهم أن على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتبرع بحراثة يوم، وحصاد يوم من، ودراسة يوم في أرض الزاوية. فلذلك يسهل عمران الزاوية بدون

نفقة كبيرة. ثم هناك الشيخ الذي يقيم الصلاة في مسجد الزاوية ويعلم أحداث القبيلة القراء و الكتابة. ويعقد عقود النكاح ويصلي على الجنائز. .. إلخ. و الزوايا السنوسية هي الملاجئ الوحيدة في الصحراء للمسافرين و التائهين و الواردين و الشاردين..". [4]

إن هذا الدور الذي قامت به الزوايا جعلها محطّ اهتمام من المستعمر الذي عمد في كثير من الأحيان إلى شل حركتها. ومصادرة أو قافها . وتعطيل المدارس العلمية بها.

ورغم ذلك ظلت هذه الزوايا تغالب الموج. وتصد التيار الاستعماري الجارف. وتشارك في مسيرة النهضة الوطنية " التي كان من دعائمها الطلبة ـ علماء الدين. وفقهاء الشريعة ـ الذين قاوموا بكل ما أوتوا من قوة شراسة المسخ. وقسوة الاستئصال. مما حفظ لهذا الوطن هذا الإسلام كدين. وحفظ اللغة العربية كلغة لهذا الدين. ثم حفظ لهذا الوطن وأهله شخصيته المتميزة شكلا ومضمونا"

اسألوا الثورات و الملاحم البطولية لهذا الوطن ينبئكم بالخبر اليقين. فعبد القادر بن محي الدين خريج زاوية. درس فيها التوحيد والفقه والنحو والصرف والبلاغة والأدب. .ثم أصبح فارس الميدان يخوض المعارك مع الضباط الكبار الذين درسوا فنون الجيش المنظم. فانتزع منهم النصر. وأفتك من أيديهم أمجاد المبادرات الحربية و السبق فيها إلى مواطن الشجاعة و الجلد و الفخار.

لقد سجل التاريخ بحروف العز أسماء: لالا فاطمة. أولاد سيدي الشيخ. الشيخ بوعمامة. الشيخ بومعزة. بومزراق. أحمد باي. .وغيرهم.". [5]

استطاعت زوايا ومدارس القرآن التابعة لطرق الدرقاوية. والتيجانية، والقادرية و الرحمانية أن تكون كذلك مركز إشعاع علمي. وديني. ومراكز أيضا لإيواء المقاومين و المحاربين الذين نذروا أنفسهم للجهاد من أجل الدين و الوطن.

لقد عمل الاحتلال على تخريب وتدمير أهم مدرسة. وأكبر زاوية. وأقوى معهد.وقصد إلى ذلك الجنرال دوماس إذ قال :" أنه في سنة 1849م لم تبق أي مدرسة ثانوية تقريبا على وجه التراث

الجزائري "[6]، هل استسلم الجزائريون للوضع القائم ؟، هل اعتبروا ذلك قدرا لا يرد. .؟كلا!. بل حملت الطرق الصوفية همّ التعليم في الزوايا. .في المدن والجبال و الأرياف، وحملوا مشعل الثقافة من جديد.

ولم تمر فترة طويلة حتى زخرت الجزائر شمالا وجنوبا شرقا وغربا بالزوايا و المدارس ومن أشهرها زاوية سيدي صدوق في شلاطة في بلاد القبائل، وزاوية عبد الرحمان باش تارزي في قسنطينة. وبلحملاوي، وزاوية طولقة، وزاوية الهامل في بوسعادة ... وقدرت الزوايا في ذلك الوقت في المدن الكبرى فقط بـ: 50زاوية في منطقة بجاية، 24 زاوية في العاصمة، 30 زاوية في تلمسان، 16 زاوية في قسنطينة.

لقد وقفت هذه الزوايا عقبة أمام الاستعمار، وجدارا حديديا في وجه التبشير و التنصير و التجنيس و التفرنس...وتصدت للغزو العقائدي و الفكري و الثقافي وكل ما يحمله الاستعمار لبلادنا. لا بالقوة، بل بالرفض و الاعتزاز بالنفس وكراهية أشياء الاستعمار و النفور منها لأن الاستعمار شر. وكل ما يأتي من الاستعمار فهو شر يجب رفضه و الابتعاد عنه.

وكان أهم ما قامت به هذه الزوايا المحافظة على القرآن الكريم، وتحفيظه وحفظه في صدور أبناء المسلمين كتابة ورسما وتلاوة وتجويدا حتى لا تمتد إليه يد التحريف و التغيير. ويتلى صباح مساء في المساجد و البيوت فرادى وجماعات وبذلك قطع الطريق أمام أعداء الله وأعداء الإسلام و المسلمين. فوقفوا أمام هذه القلاع، عاجزين فاشلين لأن الله تعالى تكفّل بحفظه.

وكان تمسك الشعب الجزائري بكتاب الله سبب بقائه واستمرار حياته في خضم الشدائد و المحن التي جعلته يثبت ويصمد في وجه الكفر و الطغيان ويتحدى أساليب المكر و الخداع، ولم يخدعه لمعان و سراب الطمع والإغراء. [7]

إلى حين الثورة التحريرية سنة 1954م، التي رفعت شعار الجهاد المقدس، وسطر صانعوها التاريخ الأمجد الذي لا تمحوه الأيام. كل هذا كان بمفعول هذا التعليم الديني ورجاله ومعاهده ومساجده وزواياه.

التعليم الديني في الزوايا.. هل وفى أهله له ؟

لما كانت الزوايا مراكز إشعاع علمي، احتضنت ثقافتنا الذاتية، وأصبحت صفحة مشرقة من تاريخنا. وجانبا مثمرا من حضارتنا. ربطت السلف بالخلف، ووصلت مشرق الأمة بمغربها. وانمحت الفروق بين الأعصار والأمصار فإذا المسلمون جميعا يلتفون حول كتاب ربهم وسنة نبيهم، ويحكمون الارتباط بأخلاقهم وتقاليدهم.

فهل استطعنا أن نحافظ على هذه القلاع الحصينة؟ ونجدد ما اندرس من ريادتها ؟....

إن الغارة الصليبية المعاصرة على أمتنا المسلمة كان لابد من وضع خطط خبيثة لإنزال هذه المراكز الدينية من عليائها. وتشويه رجالاتها. ووصمهم بكل ما يمس وطنيتهم، ودينهم، وإخلاصهم.

ونحن اليوم نأبى أن نفرط في هذه المؤسسات، التي لا ينكر إلا جاحد دورها العلمي والأخلاقي والاجتماعي، ونسعى إلى النهوض برسالتها من جديد و المتمثلة في التعليم ـ هذه الفريضة الغائبة ـ و تحت أي مسمى: مدرسة قرآنية، كتاب، زاوية. ..ولا نتخلى عنها لأن ذلك هو الانتحار بعينه. بل يجب أن نوفر لهذا التعليم أسباب العافية والاكتمال حتى تعاود أداء دورها الريادي، ورسالتها العتيدة. وتعود كما كانت صورة سليمة وسيمة لتعاليم الإسلام في كل مجال. ونكون بذلك قد وفينا لهذا النوع من التعليم حقه وحفظنا له الجميل يوما ما.

نحو بعث جديد للدور العلمي للزاوية

ـ التعليم القرآني:

بالنسبة للتعليم القرآني في الزوايا أقترح ما يلي:

1 ـ لما تراجعت مكانة التعليم القرآني أمام التعليم العام وأصبح وجوده قاصرا على بعض القرى والمدن الداخلية المحافظة، ويقوم بالتعليم فيه بعض القاصرين ،أو الفاشلين في حياتهم العلمية أو العملية. .وليست لهم موارد للرزق غير تبرعات المحسنيين. فإن الاهتمام بمعلم القرآن في الزاوية، وإعداده إعدادا خاصا ثقافيا واجتماعيا، وتوفير الحياة الكريمة حتى يحظى باحترام الناس وتقديرهم ضرورة ملحة لبعث دور الزاوية من جديد.

2 ـ إن عدم وجود قوانين ولوائح تهتم بهذا الجانب من التعليم. جعل الناس تعزف عن الالتحاق به، فلابد من توفير هذه القوانين وتكون من الحزم و الجدة في تشريعاتها وتنفيذها بحيث تحقق الغاية المرجوة في بناء المسلم المعاصر.

3 ـ لابد من استغلال كل الوسائل التقنية المعاصرة في تعليم القرآن دون الجمود على الطرق العتيقة التي أصبحت لا تجدي، فالذاكرة تأثرت في هذا العصر بالمخترعات التي أدت إلى اضطرابها أو كسلها، كما أن التهاون و التقصير في حفظ القرآن جاء نظرا لزحف النظرية التربوية العلمانية التي تحارب الحفظ في أي صورة من صوره، وتعمل على اجتياح المؤسسات الكبرى التي تعمل على حفظ القرآن الكريم، وأقصد بها الكتاتيب دون أن يظهر لها بديل.فلابد من التجديد ومواكبة العصر و العمل على استخدام الوسائل السمعية البصرية في عملية تحفيظ القرآن.

4 ـ إدارج مادة التفسير الموضوعي في برنامج تحفيظ القرآن (الآيات المتعلقة بالأحوال الشخصية، و العلاقات الأسرية).لأن الحفظ دون الفهم قد يؤدي إلى الملل، والملل يصبح معوقا لعملية الحفظ. ..والحفظ دون الفهم قد يؤدي أيضا إلى إساءة غير مقصودة للهدف من حفظ القرآن.

5 ـ إشاعة روح المنافسة والتشجيع على الحفظ بين كتاتيب الزوايا وذلك عن طريق إجراء مسابقات جهوية ووطنية بين الطلاب ،وتقديم لهم هدايا تليق بحافظ كتاب الله.

ـ العلوم الدينية الأخرى:

إن غياب التعليم الأصلي عن النظام التعليمي في بلادنا، وحرمانه من رعاية السلطة الحاكمة له .أفرز انكماشا حقيقيا في دائرة التعليم الديني عامة، من مظاهره الذبول المادي والأدبي بين رجاله، وانحصار دورهم في المجتمع بل إن الجمهرة الكبرى منهم تتوارى من الانتساب إلى مدارسه. وهذه حقيقة ينبغي أن نعترف بها.

لذلك فإن إخراج الزاوية ومريديها من العزلة عن المجتمع، وهدم الحائط الذي يحول بين تفاعل الزاوية مع الحياة والأحياء، وتطوير التعليم الديني بها، أكثر من ضرورة في هذه المرحلة العصيبة التي تمر بها البلاد.

وليس تطوير التعليم الديني بالزوايا هدم لهذه المؤسسة وقضاء على دورها، صحيح. .لقد تعودنا على نمط معين، وخاصة وأن هذا النمط استمر فترة طويلة ولازمها ردحا من الزمن تعلما وتعليما. ولكن البناء يتطلب الجرأة والإقدام.وعدم الاكتراث بالتقاليد الموروثة التي قد تسيء وتضر أكثر مما تنفع وتفيد.

وفيما يخص تدريس العلوم الدينية الأخرى أقترح ما يلي :

1 ـ حسن انتقاء الطلبة الملتحقين بالزوايا للدراسة من ذوي النفسيات السوية، والكفايات المحترمة .لأن البلاهة في عقول أكثر ما نعرف والعجز الملحوظ في أخلاقهم لا يصلح معه لأن يكونوا رسلا للدين، أو دعاة للسماء. فمئات من الطلاب الذين يتوجهون عن رغبة أ عن رهبة إلى مدارس الكتاتيب بالزوايا لا يتهيأ أغلبهم لحمل كتاب الله، الذي يفترض أن يحمله الصفوة من خلقه. ثم يحفظون كتاب الله، وتستوعب ذاكرتهم هذه الوديعة الضخمة من آيات الله طورا بالرغبة، وطورا بالرهبة، وتظل وديعة مختزنة مقطوعة الصلة بالعمل و الخلق، والتفكير و التدبير.

2 ـ تقسيم الطلاب إلى مراحل يراعى فيها تقسيم الزاد العلمي الذي يقدم لهم يتفاوت كما وكيفا كما تتفاوت مؤهلاتهم.

3 ـ إدراج علوم المقاصد في البرنامج الدراسي. لأن الاهتمام ـ للأسف ـ موجه نحو علوم الوسائل فقط مما أدى إلى الانحراف. واتساع الهوة بين أحكام الدين وسلوك المتدينين.

4 ـ معاودة إدراج بعض العلوم الإنسانية و المدنية كما كانت .فالزوايا كانت من برامجها هذه المواد .وفي حياة الشيخ عبد الرحمن الديسي مثلا وجدت أنه كان " يدرس التفسير، والحديث، وأصول الدين و الفقه وأصول الفقه وفي العربية: النحو و الصرف و البلاغة والأدب. .كما يدرس إلى جانبها السيرة و التاريخ والمنطق، والفلك و الحساب"[8].مع التركيز على مادة التاريخ التي أهملت حتى في برامج جمعية العلماء المسلمين ! مع تناول تاريخ الجزائر بشيء من التفصيل، إلى جانب موجز عن تاريخ العالم الإسلامي وتاريخ العالم. مع فتح مجال المقارنة الواعية بين أحوال الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم التي اشتبكت معها في سلم أو حرب.

5 ـ القضاء على التعصب المذهبي، والانتماء الطرقي، ودفن الحزازات و الحساسيات بين الزوايا. لأن الإسلام كدين أصبح مهددا تناوشه الأفكار الغربية، والفلسفات المادية الوافدة. ..تريد صرف الناس عنه، وسحبهم من ساحاته.

6 ـ تدريس التصوف كعلم إسلامي له أسسه ومدارسه ورجاله، وإذكاء أخلاق الإسلام التي هي أساس الشريعة بحيث إذا افتقرت أحكام الشريعة ـ سواء في ذلك الأحكام الإعتقادية أو الأحكام الفقهية ـ إلى الأساس الخلقي كانت صورة لا روح فيها، أو هيكلا فارغا من المضمون. [9]

إن كثيرا من لا يعرفون عن التصوف شيئا، وكثير منهم أيضا يعرفون عنه أشياء بعيدة عن الواقع، ويحكون عنه أخبارا فيها كثير من التجني والافتراء. بل إنه إذا ذكر عندهم التصوف تراءت للعين صور شائهة لرجال يتبعون طرقا شتى وتنتظم في المناسبات الدينية مواكب بغام منكر، تخدم السلطات الغاشمة، وتحيي البدع و الخرافات، وقلما ارتفعت لها راية في ميدان جهاد.

و الحق أن هؤلاء الغوغاء لا علاقة لهم بالتصوف، ولا يعرفون منه قليلا ولا كثيراً.

والتصوف الذي ينبغي أن يركّز عليه في هذا المقام هو التصوف الذي نبت في أكناف الإيمان والإسلام والإحسان، ونما على أغذية جيدة من العلم والعمل واستطاع أن يلون المشاعر الإنسانية بصدق العبودية، ودفعها إلى التفاوت في مرضاة الله، و الحس الدقيق بوجوده وشهوده، وجعل أصحابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة.[10]

أما فيما يتعلق بالتراث الصوفي في ثقافتنا، فإنه ينبغي أن يغربل هذا التراث وتقدر فيه جهود ابن القيم وابن الجوزي و الغزّالي وابن عطاء الله السكندري وغيرهم. لنخرج بحصيلة رفيعة القدر في مجال الخلق و التربية و السلوك.

لقد رفض كثير من الموجهين اعتبار التصوف علما. وتركوه للجماهير تتبع فيه آثار من لا يحسنون التربية و القيادة، بيد أن هؤلاء القاصرين كانوا أقدر على اقتياد العامة من فقهاء جافين مكروهين فقدوا صفاء النفس وسماحتها وطيبتها.

فإلى متى يبقى هذا الموقف الرافض ؟وماذا كسبنا منه ؟.

ولإنجاح سير التعليم في المدارس لابد من:

1 ـ أن تكون لهذه المدارس لوائح داخلية، ونظام أساسي شامل للشؤون الإدارية و المالية و التعليمية والاجتماعية، يتولى وضعها عدد من أعضاء هيئة المدرسة ومؤسسيها، وبعض أهل الخبرة و الدين، أو بعض الهيئات الإسلامية التي لها باع في مجال التربية و التعليم.

2 ـ لا يكفي لتوظيف الأساتذة والمدرسين بهذه المدارس أن يكونوا من الأسرة القائمة على الزاوية أو من أتباع الطريقة، بل ينظر فيهم السلوك القويم والسمعة الطيبة.

3 ـ العمل على تجديد بناء الزوايا أو ترميمها وتوسعتها، لأنها في أغلبها آيلة للسقوط لطول الإهمال ونقص الموارد عنها. وهذا لا يتأتى من طريق الصدقات، وتبرعات المحسنين فقط، بل ينبغي إعداد خطة محكمة لدعم الزاوية وإيجاد موارد مالية دائمة لها وذلك عن طريق :

أ ـ إعادة إحصاء الأوقاف التابعة لكل زاوية، وقد لعب الوقف دورا خطيرا في تاريخ التعليم في العالم الإسلامي كله على مر الأعصار، فقد قامت أعرق المؤسسات التعليمية عليه. بل إن بعض الدول العربية تبنت نظام الوقف في العصر الحديث لما له من أثر خطير في تحقيق المصالح الدينية والاجتماعية على وجه الاستمرار و الدوام، حتى بعد وفاة الراغبين في فعل الخير من الواقفين.

ب ـ إقامة مشروعات استثمارية لدعم الزاوية.

ج ـ إعداد خطة لجمع التبرعات والإشراف على استثمارها، والإنفاق من مواردها. .وفتح حساب بنكي جاري للزاوية، وحساب بالعملة الصعبة لتمكين المغتربين المخلصين من المساهمة في مشاريع الزاوية.

د ـ دعوة بعض الدول الإسلامية وأهل الخير من أفراد ومؤسسات مالية ومصرفية وشركات استثمار داخل البلد للمساهمة في هذه المشروعات.

وإذا تحققت هذه الآمال أو بعضا منها فهناك جملة من الواجبات:

1 ـ توفير حد الكفاية وضمان العيش الكريم لطلاب ومدرسي الزاوية بصرف منح معتبرة للطلاب، ورفع مرتبات المدرسين .

2 ـ تحسين ظروف الإقامة، والأكل، للطلبة.

3 ـ إعادة تنشيط مكتبات الزوايا وتزويدها بالمصادر والمراجع، وترميم المخطوطات التي تصارع الفناء في الأقبية والمخازن، وترتيبها، وتصنيفها، وترقيمها ،وذلك بإشراك مختصين في علم المكتبات باستخدام الطرق الحديثة في هذا الميدان.

4 ـ فتح الأبواب مشرعة أمام الباحثين والدارسين للاستفادة من تراث الزاوية، (تخصيص قاعة للمطالعة ،وآلة للتصوير، مع توفير ظروف الإقامة للزائرين) ولنا في زاوية طولقة خير مثال.

5 ـ إنشاء مكتبات جديدة تشتمل على كتب متنوعة في شتى العلوم و المعارف، حتى نمكن طلاب هذه المدارس من تنويع ثقافتهم، وتنمية أفكارهم، وتوسيع مداركهم.

6 ـ إتاحة الفرصة لطلاب الجامعات الإسلامية و المعاهد الدينية للعمل في هذه المدارس من ذوي التفوق العلمي، والاعتدال الديني.

7 ـ إقامة ملتقيات وندوات لبحث ودراسة كل الصعوبات القائمة، ووضع الخطط العملية لاجتيازها و التغلب عليها، وتنسيق الجهود بين القائمين عليها ويكون ذلك كله تحت إشراف المجلس الأعلى للزوايا.

8 ـ تكوين اتحاد للمدارس القرآنية، مع مساندة الحركة الجمعوية الأصيلة، بهدف مواصلة السعي لدى الدولة لتقديم مساعدات مالية لتسيير هده المدارس، ولا يضيع حق وراءه طالب.

9 ـ تأليف كُتيب سهل التناول، سلس العبارة حول تاريخ الزوايا في الجزائر ودورها، والطرق الصوفية فيها، ويتضمن إجابات شافية لكل التساؤلات و الشبهات التي تحوم حولها. يسهم في وضعه مشايخ، ومؤرخون، وأساتذة مختصون، متغاضين عن الخلاف المذهبي و الطرقي الذي لا يزيد إلا فرقة وتشتت.

10 ـ إعداد كتيب للطلاب يبسط فيه حكم الإسلام في الموضوعات الآتية: [11]

- التصوف: معناه ، تطوره، رجاله.
- ما معنى الشريعة، والحقيقة، وهل بينهما فرق ؟
- من هو الولي ؟ وما هي الكرامة؟
- ما هي الطرق ومن رجالها ؟ ومن هو القطب و الغوث. ...؟ومن هم اهل الله ؟ وأصحاب الديوان؟.....إلخ
- ما هو الذكر الشرعي ؟ وما كيفيته ؟

- مامعنى التوسل الصحيح وكيفية الدعاء؟
- حكم النذور ؟
- الزيارة الشرعية للأضرحة وحكم السفر إليها.

وأخيرا أقول إن دور الدولة لا ينكر في هذا الميدان، فقد انعقد إجماع المجتهدين على أن وظيفة الدولة المسلمة التي يتولاها ولي الأمر ونوابه ومؤسساته المعاونة له هي حراسة الدين وسياسة الدنيا به، وحراسة الدين تتمثل في المحافظة على هذه المؤسسات التي هي قلاع للوحي الأعلى.

قد يبدوا هذا الطرح مثاليا، وقد نختلف في بعث النقاط التي أوردناها، ولكن الأمر الذي أرجو ألا نختلف عليه هو وضع خطة تفصيلية استعجالية للزوايا ومدارس القرآن وكيفية التعليم فيها أمر لازم يفرضه واجب خدمة الأمة وواجب خدمة الدين.

الاهوامش

(1) ـ رابح بونار: المغرب العربي ـ تاريخه وثقافته ـ الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968م، ص. 50

2) ـ محمد عوض الهزايمة: حاضر العالم الإسلامي، ط1، الأردن: دار عمار، 1997م، ص331.

(3) ـ أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ص، 56

(4) ـ تعليق على "حاضر العالم الإسلامي" تأليف :لوثروب ستودرد، ترجمة عجاج نويهض، القاهرة: المطبعة السلفية، 1925م، ج1/ص،108

(5) ـ محمد الطاهر فضلاء: دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، قسنطينة، الجزائر :دار البعث، ص،31،33

(6) ـ Turun Yvone - Afrontements culturels dans L'Algerie Coloniale - p.131

(7) ـ محمد نسيب: زوايا العلم والقرآن في الجزائر. دار الفكر: الجزائر، ص49، 50

(8) ـ محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ،ط1،الشام: المطبعة التعاونية،1965م،ج1،ص،43.

(9) ـ أبو الوفا التفتزاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، القاهرة: دار الثقافة ،1988م، ص،12.

(10) ـ محمد الغزالي: مائة سؤال عن الإسلام، ط4، القاهرة: دار ثابت

(11) ـ السيد سابق: عناصر القوة في الإسلام، دار الكتاب العربي: لبنان، 1986م، ص97.